سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير
للأستاذ صديق شيبوب

— ٣ —

العقل الباطن سر من أسرار النفس المغلقة التي يصعب الوصول إليها وإماطة اللثام عنها ، وكان الأطباء يلجأون إلى التنويم المغناطيسي في أول الأمر لشفاء داء الهستيريا ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ولكن « فرويد » أبى الأخذ بهذه الطريقة وقرر ثلاث وسائل يستطاع بها معرفة دخائل العقل الباطن . فإما بانتزاع السر عنوة وقوة كما كان يفعل رجال التحقيق في القرون الغابرة ، وإما بتقريب الأدلة وحل ألغاز العواطف المكبوتة وتحليل بعض الظواهر ، وإما بالانتظار والصبر حتى تطرأ على المريض حالة ضعف عرضية فيبوح بسره

عند ما ابتدأ فرويد اختباراته اكتشف ظاهرة لم ينتبه إليها أحد من قبله ، وهي ما أسماه (الأفعال الفائتة) . ذلك أن الإنسان كثيراً ما يخطئ التعبير فيقول كلمة وهو يريد ضدها ، أو يدلي بأمر وهو يقصد عكسه ، وكان العلماء الأقدمون ، كما كانت عامة الناس ، يعزون هذه الأخطاء للغفلة أو الالتباس أو قلة الانتباه . أما « فرويد » فقد رأى أن الغفلة أو الالتباس معناها أن أفكار الإنسان ليست حيث يريدها أن تكون . ففي (الفعل الفائت) فعل قام مقام آخر ، وهذا الأخير هو الذي كان المراد إتيانه . قد تدخل إذن فجأة بين الإنسان وعمله عنصر ثالث حال دون القيام به وفقاً لإرادته . فإذا عرفنا أن لكل حادث نفسي معنى مقصوداً كما أن لكل فعل فاعلاً ، وأن العقل الواعي ليس العامل الصحيح في (الفعل الفائت) لأن العقل الباطن طغى عليه فيه ، قدّرنا أن الفعل الفائت ليس نتيجة غفلة أو التباس ولكنه دليل على ظهور عاطفة مكبوتة ، والخطأ في الحديث يدل على صميم فكرنا بينما تصحيحه لا يدل إلا على ما يقصده إليه وعينا

وهكذا نستطيع أن نقرر أولاً : أن كل فعل فائت وكل عمل يظهر أنه نتيجة خطأ إنما يعبران عن إرادة خفية ، وثانياً : أنه يوجد في المنطقة الواعية مقاومة فعالة لمظاهر العقل الباطن

وقد اندفع « فرويد » في التحليل بعد تقرير هذه الظاهرة ليفسر ظواهر وأعراضاً أخرى كان يظن أنها ضرب من المحال حتى انتهى إلى أشدها إمعاناً في المحال وهي الأحلام

كان الأقدمون يعتقدون في إيمانهم الخرافي أن الأحلام ضرب من وحي الآلهة ، فاستحدثوا في أوائل عهد الإنسانية علم تفسير الأحلام ، وشاع في هيا كل مصر وبلاد اليونان والرومان وفلسطين . ثم زال هذا الاعتقاد وصارت الأحلام أضغاثاً لا معنى لها ولا قصد ، وصار ينظر إليها كسديم ، أو كشيء لا قيمة له ، أو أنها ذبذبة متأخرة خرساء توقع على أوتار الجهاز العصبي ، أو أنها نتيجة عدم انتظام الحركة الدموية واندفاع الدم إلى الدماغ

ولكن « فرويد » رأى غير ذلك ، فنظر إلى الأحلام نظرة وضعية ، وقرر أنها الوسيط بين عواطفنا المكبوتة والعواطف الخاضعة للفكر ، وقال إن الحلم ليس كله محالاً ، ولكن لكل واحد معناه الخاص به من حيث هو فعل نفسي كامل

صحيح أن الأحلام لا تعبر باللسان الذي تعودنا النطق به في ساعات اليقظة ، لأن لغتها لغة أعماق الطبيعة غير الواعية ؛ لذلك لا نستطيع أن نفهم فهماً مباشراً معناها ورسالتها ، ويجب أن نتعلم وسائل تفسيرها ، ولغة الأحلام تعبر بوسائل الصور كما كانت تكتب اللغات القديمة

رمى « فرويد » من تفسير الأحلام إلى قصد جديد . كان الأقدمون يحاولون بواسطة هذا التفسير الكشف عن المستقبل ، أما فرويد فقد أراد الكشف عن الماضي النفسي وأسرار الإنسان العميقة ، لأن « الذات » في الحلم مثلنا شكلا في حالة اليقظة ، ولكنها تختلف عنا من حيث انعدام الزمان ، فهي في ساعات الحلم يحتوي فيها الماضي والحاضر ، أي أنه يجتمع في الحلم الطفل والمراهق ورجل الأمس ورجل اليوم مما تتألف منه (الذات) الكاملة

كل حياة مزدوجة إذن ، ففي الأعماق غير الواعية تتألف المجموعة الصحيحة من الأمس الدابر إلى اليوم الحاضر ، ومن الرجل الأول إلى الرجل المتحضر ، بينما تطفو على السطح الحياة المستنيرة والذات الواعية القانعة في الزمان

تلتقي هاتان الحياتان في حرية كاملة في عالم الأحلام الذي يعبر تماماً عن أدق عناصر حياتنا ، بحيث لا يستطاع معرفة مجموعة حياتنا الزمنية التي تتألف منها شخصيتنا ، ولا فهم مرامي إرادتنا ، إلا إذا تعمقنا جيداً في مغزى أحلامنا

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ وضع (فرويد) طريقة لحل الأحلام المعقدة ، فابتدأ بالسهلة البسيطة منها ثم قارب بين الشكل الأول والشكل الأخير ؛ والأحلام كالزهرة التي لا تعرف حقيقتها إلا بعد درس أصولها المغروسة

ابتدأ (فرويد) بأحلام الطفل الصغير بدلاً من أن يبتدئ بأحلام المراهق ، لأن الطفل الصغير لا يعي بينما المراهق يعي ويكتب ؛ والطفل الصغير لا يكتنز خياله إلا أشياء قليلة ، ودائرة تفكيره ضيقة ، والتداعي ضئيل لديه ، مما يجعل أحلامه سهلة المنال بالتفسير . يرى الطفل الحلوى فيلح في طلبها ، فإذا رفض والده أو أبت والدته مشتراها ، رآها في الحلم كما هي لأنه لا يفهم الخير من الشر . إنه يظهر رغباته بلا خشية كما يكشف عن جسمه بلا حياء

والأمر عكس ذلك عند المراهق فما فوق ؛ فصور الأحلام الرمزية تخفي في أغلب الأحيان شهوات مكبوتة ورغبات لم تتحقق في النهار فتتخذ سبيلها إلى حياتنا عن طريق عالم الأحلام

هذا ما فهمته العامة من طريقة (فرويد) في تفسير الأحلام ولكنه في الحقيقة لم يقف عند هذا الاكتشاف السهل لأنه يعرف أن الإنسان خاضع للعقل الواعي حتى في أوقات النوم عند ما يستسلم لعالم الأحلام . ففي الأحلام توجد عواطف تحاول أن تظهر ولكنها لا تجرؤ على ذلك في حرية خوفاً من المراقبة فتتحول إلى رموز في شكل دقيق والتواء مقصود وتختلط بضروب من الخيال كيلا يظهر معناها الحقيقي ، والحلم كالشاعر كاذب صادق ، لأنه يخفي الحادث النفسي وراء مظاهر رمزية . ومهمة العالم النفساني أن يحل هذه الرموز وأن يفرق بين الصحيح والكاذب منها وأن يبحث عن الحقيقة من وراء مظاهرها الكاذبة

يريد « فرويد » أن يكون البحث علمياً وأن يكون عمل الطبيب كعمل الناقد الأدبي في دراسة ديوان من الشعر . فكما يحاول الناقد الفصل بين خيال الشاعر وبين المعنى المقصود والبحث عن أسباب استعمال الاستعارات والتوريات والتشابيه والوصول إلى نفسية الشاعر الكامنة وراءه، كذلك يجب أن يفعل الطبيب النفساني لأن عليه أن يبحث في الحلم الخيالي عن دوافع المريض الشعورية . ولما كانت غاية علم التحليل النفسي معرفة الشخصية فإن على العالم أن يستخدم مواهب الإنسان الخيالية ، وأن يدرس العناصر التي تألف منها الحلم ، وأن يمعن تفكيراً وتحليلاً حتى يصل إلى الحقيقة

وهناك نظرية أخرى عرض لها فرويد لتدعيم رأيه

من المقرر أن النوم وسيلة طبيعية للراحة وتجديد القوى التي تستنفدها اليقظة . فيجب أن يكون النوم إذن سباتاً عميقاً في ظلام لا ينقطع . وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى إذن للأحلام ، وهذا ما قرره الكثيرون من العلماء . ولكن «فرويد» رأى فيها وسيلة للتفريج عن العواطف والشهوات المكبوتة وتحريرها من حكم العقل وسيطرته عليها . وهكذا تقوم الأحلام مقام الأفعال التي أبينا إتيانها في اليقظة . وقد قال أفلاطون : « يكتفي الرجل الصالح بأن يحلم بما يفعله الرجل الشرير في اليقظة »

هذه هي النظريات الأساسية التي بنى عليها « فرويد » علم تفسير الأحلام . وقد أبينا شرح وسائل هذا العلم وطرق التفسير لأنها كثيرة متشعبة ، وهي في مجملها متروكة لفطنة الطبيب وذكائه

على أن الحلم ليس الوسيلة الوحيدة لتعرف شخصية المريض وشهواته المكبوتة . فهناك طريقة أخرى يقول « فرويد » بأن العالم النفساني يستطيع أن يمارسها في كثير من الدقة والصبر ، وهي أن يفسح المجال للمريض ليتحدث بكل ما يمر بخاطره من غير إمعان فكر أو تحكيم عقل

يستلقي المريض على مقعد طويل بينما يجلس الطبيب إلى مكتبه بحيث لا يراه المريض الذي يجب أن ينسى حضوره . ثم يأخذ المريض بالكلام يلقيه على عواهنه فيدلي بكل بادرة تمر بذهنه ، بينما يصغي إليه الطبيب ويلاحظ ما يجد فيه دلالة على حالة مريضه

ولا شك أن هذه الطريقة سهلة وخطرة لأن المريض الذي تعود الكبت قد لا يبوح بكل خلجات ضميره ، ولأن العقل الواعي يسيطر أبداً على اللسان بالرغم من إرادة الإنسان ، ولأن المريض كثيراً ما يكون قد أعد قصته ليرويها للطبيب فلا يستطيع الانفكاك من أثرها

لذلك يجب أن يطول المجلس وأن يتكرر أكثر من مرة ، وأن يتذرع الطبيب بالصبر الطويل حتى ينفد صبر المريض فتجري على لسانه ألفاظ يستطيع الطبيب بواسطتها أن يتعرف إلى حقيقة الداء . والأمر بعد ذلك موكول إلى مهارة الطبيب وذكائه .

صبري شيرين